# تراثُنا سياج هُوِيَّتنا

# ضرورة الحفاظ عليه في عصر العولمة

# Our heritage is the fence of our identity
# The necessity of preserving it in the era of globalization

محمد فتحي فرج*
mffbayomy@yahoo.com

**ملخص**

تتناول هذه الورقة التَّعريف بأهميَّة تراثنا العربيّ الإسلاميّ في الحفاظ على هُوِيَّتنا وشخصيتنا المتفردة لا سيما في زمن العولمة التي تسعى إلى تذويب الهُوِيَّات المختلفة وتنميطها أو صبها في قالب واحد لصبغها بالطابع الغربي الأمريكي. كما أوضح البحث أنه لا تناقض بين الحفاظ على التُّراث والاهتمام بالمستقبل.

كما تعرض البحث للتعريف بالتُّراث العربي والمخطوط العربي منوهًا بتراثنا في المجالات العلمية والطبية والأدبية المختلفة. وقد بين البحث الوظائف الخاصَّة بالتُّراث على المستوى الشخصي والعالمي، فبالنسبة للأولى فهو يمثِّل ذاكرتنا القوميَّة، وبالنسبة للثانية فقد أسهم في إمداد العالم الغربي بأسس تقدمه

* أستاذ علم الحيوان بجامعتي مصر للعلوم والتكنولوجيا، والمنوفية.

في وقت من الأوقات، وفضلًا عن هذا فلا يمكن الاستغناء عن التُّراث المتعلق بعقيدتنا أو كنوزنا الأدبية والشعرية واللُّغوية.

كما تعرَّض البحث لمفهوم العولمة والتحذير من الوقوع في فخها وعن هذا فيمكن استثمار جانبها المضيء في الحفاظ على تراثنا. كما ألمحت الورقة إلى ما يجب علينا فعله تجاه تراثنا ومخطوطاتنا للحفاظ عليهما من الضياع والاندثار. واختتم البحث بكلمة حول التجديد والتُّراث في عصر العولمة.

**الكلمات المفتاحية:** التراث العربي الإسلامي – العولمة – المخطوط العربي.

## Abstract

This paper aims to highlight the importance of our Arab-Islamic heritage in preserving our unique identity and personality, especially in the era of globalization, which seeks to dissolve and stereotype different identities or cast them in one mold to imbue them with the American Western character. The research also showed that there is no contradiction between preserving heritage and caring for the future.

The paper also presented an introduction to the Arab heritage and the Arabic manuscript, noting our heritage in the various scientific, medical and literary fields. The research showed the functions related to heritage at the personal and global levels. For the first, it represents our national memory, and for the second, it contributed to providing the Western world with the foundations for its progress, particularly in the Middle Ages. Moreover, the heritage related to our faith or

our literary, poetic and linguistic treasures cannot be dispensed with.

The research also presented the concept of globalization and a warning against falling into its trap. However, its bright side can be invested in preserving our heritage. The paper also hinted at what we must do about our heritage and our manuscripts to preserve them from loss and extinction. The research concluded with a speech about innovation and heritage in the era of globalization.

**Keywords:** Arab-Islamic heritage - globalization - the Arabic manuscript.

التُّراث العربي رافد مهم من روافد الحضارة الإنسانيَّة الممتدة عبر التَّاريخ، ما في هذا من شك. وقد تجذَّرت هذه الأهميَّة وترسَّخت خاصَّة بعد بزوغ فجر الإسلام في الجزيرة العربيَّة. فقد كان للإسلام فضل كبير في تنمية هذا التُّراث، ونضجه، وتقديمه للعالم لا سيما بعد الفتوحات الإسلامية المترامية الأطراف، ودخول أمم كثيرة ذات حضارات متنوعة . تضرب بجذورها في عمق التَّاريخ . في رحاب وتحت راية الإسلام، مع اتخاذها للسان العربي المبين أداة تفكير، وتفاهم، وتأليف عِوضا عن لغاتها الأصلية الموروثة.

وفي هذه الرقعة الممتدة من الهند شرقًا إلى الأندلس غربًا تحت راية الإسلام في بُعْد زمني يمتد هو أيضًا ما بين القرن الهجري الأول إلى القرن العاشر. أقول في هذين البعدين مكانًا وزمانًا ترك التُّراث العربي الإسلاميّ للعالم زادًا معرفيًّا، وذخرًا ثقافيًّا أضاف الكثير إلى الحضارة الإنسانيَّة من علم، وثقافة،

وآداب، وقيم إنسانيَّة رفيعة، ومنجزات حضاريَّة أفادت ولا تزال تفيد البشريَّة جمعاء.

وقد أثرى التلاقح الفكري والحضاري هذا التُّراث الإنسانيّ[1] فنتج عنه زادٌ فكري متنوع ضمَّ صنوفًا شتى من العلوم والفنون والآداب، والثقافات التي أضافت الكثير والأصيل إلى التُّراث الإنسانيّ الذي أدى إلى التطور والتقدم الحضاري الواضحين، بالمقارنة إلى الفترات التَّاريخية التي سبقته.

وقد عَرَف المستشرقون والعلماء الغربيون قيمة هذا التُّراث ممثلًا في مخطوطاته، سواء المحقَّق منها أو غير المحقق، فاستغلوا فترات الحروب والقلاقل ليجمعوه ويستولوا عليه بشتى الطرق، ثم نقلوه إلى بلادهم، وأخذوا يدرسونه، ويحققونه، ويستفيدون من معطياته أيما إفادة، ثم صدَّوره لنا في صُورٍ شتى.

ومع هذا فكثير من المستشرقين إذا كانوا قد وُفِّقوا حينًا في بيان قيمة وأهميَّة هذا التُّراث كمنجز إنسانيّ، أضاف الكثير إلى بني الإنسان، فقد أخفقوا أحيانًا أخرى[2] في تحقيق هذا الهدف؛ مما يضع في أعناقنا –العرب والمسلمين بشكل– عام أمانة نفض التراب عن هذا التُّراث لا سيما المخطوطات التي لم تُطبع بعد، وإعادة تقديمه لنا وللعالم كله في صورته الحقيقية.

وفي هذا يقول واحد من أقطاب التُّراث وهو الدكتور حسين نصار، رحمه الله ما فحواه: تاريخ العلم من الدِّراسات العالمية التي أسهم فيها الأوربيون بنصيب وافر في العلوم العربيَّة المتعددة، والوفاء للوطن المصريّ والأمة العربيَّة

يهيب بنا ألا نترك الدِّراسات الخاصَّة بتراثنا بين أيدي أجانب عنه، خاضعة لصدقهم أو كذبهم، لعدلهم أو انحيازهم، لفَهمهم أو عدم قدرتهم على الفَهم، ويفرض علينا أن نشارك بنصيب موضوعي واضح في هذا التَّاريخ، ولن نستطيع أن نعطي هذا البحث ما يستحق من ضمانات إلا بوجود هذا التُّراث العلميّ الذي نؤرخ له ميسرًا بين أيدينا، ولا يمكن هذا إلا بحفظ هذا التُّراث في خزائن كتب حصينة، وبتحقيق نماذج مختارة منه نضعها بين أيدي جميع القراء، لا الباحثين وحدهم، ففي هذه النماذج منافع كثيرة إلى جانب الجدوى التَّاريخية. وهذا التُّراث ليس كتبًا فحسب، وإنَّما هو كشوف مهمَّة، ونظريَّات كثيرة، وآراء رشيدة، وتفكير علميّ، وسلوك حضاريّ، وهي كلها مفخرة للعالم العربي ينبغي أن يسجلها ويبرزها المؤرخون والمهتمون بهذا التُّراث[3].

## التُّراث والمستقبل:

التُّراث كما يصفه بعض الباحثين هو صلة الماضي بالحاضر وصولًا إلى المستقبل حتى إنه يُقال: إذا أطلقت نيران "مسدسك" على الماضي أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك. فالتُّراث هو الهُوِيَّة التي تميِّز التَّجمعات البشريَّة ويختزن ثقافتها، ويُسهِم في استدامتها وزيادة تماسكها الاجتماعي وعيشها السلمي الآمن[4].

ومن ناحية أخرى، فإنَّ قضية تراثنا، والعلميّ منه على وجه الخصوص، لا ترتكز على أساس من تقديس الماضي واجتراره ومحاولة العيش فيه، وإنَّما على أساس من التَّطلع إلى المستقبل، والاهتمام به في المقام الأول. فهو وإن

كان تراثًا أنتجه البشر، بيد أنَّه قد نشأ وترعرع وازدهر تحت راية الإسلام، وبفضل معاييره الموضوعيَّة، وأسسه النبيلة التي تُعلي من قيم الحريَّة والعدل والتسامح والصدق، وترفع من شأن العلم والعلماء، فهو من ثمّ نتاج كل ذلك ومحصلة له.

وقبل أن نسترسل في هذا السياق ينبغي أن نوضِّح أمرًا هامًّا، فالبون شاسع بين الإسلام كعقيدة وشريعة، ومبادئ خالدة دائمة التواجد الحيّ، والحضور الفعّال، في قلب المسلم وعقله وضميره، وبين ممارسة بشريَّة تمخضت عنها منجزات في كل المجالات، خلال فترة زمنية متطاولة، تصل الآن إلى أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان؛ في الفقه وما يتصل به من اجتهاد، وعلوم التفسير والتأويل، وفي مجالات الأدب والشِّعر والعلوم الإنسانيَّة، وفي تخصصات العلوم الطبيعية والطبيَّة والصيدلانيةً، إلى غير هذا وذاك من نتاج العقل البشريّ، كل هذا الميراث في هذه النواحي والمجالات خاضع لظروف الزمان والمكان، ومن ناحية أخرى، فإنه كنتاج بشريّ، المفروض أنه يتلاءم أيضًا مع التطور الحادث فيها جميعًا بحيث لا تتناقض مع معطيات العصر، ولهذا فلا بد من غربلة هذا التُّراث لا سيما التُّراث العلميّ على نحو خاص بشكل مستمر، للتعويل على ما يصلح منه لزماننا، ووضع الأجزاء الأخرى منه، والتي تجاوزها الزمن، في متحف التَّاريخ؛ لتكون شاهدة على ما صنعه الأجداد وأنجزوه، في وقت من الأوقات، وهو يعتبر في الوقت ذاته بمثابة مرصد حساس

للوقوف على الكيفية التي تَرَقَّى بها العقل البشريّ في معالجته لمختلف القضايا والظواهر، وما قام به من اكتشافات ومنجزات في كل مجالات النشاط الإنسانيّ.

أما الجوانب التُّراثية التي تتعلق بالدين فهي التي تشكِّل الأرضية الثقافية والفكرية والفلسفية لنا؛ ولذا فإن ثمةَ تلازمًا بين العروبة والإسلام من خلال هذه الجوانب، وعلى هذا فإنَّ الاهتمام بالتُّراث القوميّ ينطلق من كونه يؤصل هُوِيَّتنا، ويبعث تاريخنا، ويمنحنا خصوصيتنا كأمة متسامحة[5].

وإذا كنا نعاني في الوقت الراهن من حالة إفلاس حضاري بكل المقاييس، فإن أحد المداخل الهامة للخروج من هذا المأزق أن نلجأ إلى ما لدينا من كنوز الآباء والأجداد، لا لنستعين بها هي نفسها، ولكن لنرى الوسيلة التي توصل بها الأجداد للحصول عليها، ففي هذا المنهاج وفي هذا الطريق، سر الفلاح ومفتاح النجاح، ومن ثَم فالاهتمام به يمنحنا طاقة على العمل من خلال رصد منجزات أجدادنا حتى لا نعاود الانطلاق من نقطة الصفر مرة أخرى[6].

وقبل أن نخوض فيما يجب علينا حيال هذا التُّراث، ينبغي أن نحدد أولًا بعض المصطلحات المهمة في هذا المجال حتى يتضح المنهج الذي يمكن على أساسه السيرُ بنجاح فيه، وتحقيق الهدف المنشود من بذل الطاقة والجهد.

فالتُّراث كلمة كثيرًا ما تلوكها الألسنة، وتجري بها الأقلام، فتعالوا نحاول تحديد مدلوله، والوقوف على ماهيته ومعناه.

التُّراث كما يذكر أحد الباحثين هو كل ما أُنْجِزَ في الماضي علميًّا وتقنيًّا وقيميًّا ولا يزال حاضرا فينا. فهو بمثابة الذاكرة الثقافية: فهو قد يكون عربيًّا أو

إسلاميًّا أو إنسانيًّا، سواء أكان ذلك من طريق الوعي الفكري العاقل، أو من طريق الوعي "الأسطوريّ". أما توظيف التُّراث في قضايا العصر فهو شيء آخر يندرج تحت مقولة تفعيل التُّراث الواعي واللاواعي في الوعي[7].

أما حينما نقول مثلًا: إن "التُّراث العربيّ" يحتوي على كثير من "المخطوطات" المهمة. فقد وردت في هذه الجملة ثلاثةُ مصطلحات ينبغي تعريفها بدقة. فأما كلمة "التُّراث" فنعني بها ما قدمته هذه الأمة أو تلك إلى الإنسانيَّة من إسهام مفيد، وما أضافته إلى حضارة الإنسان من منجزات وقيم، وكان لها أثرها في الناس. وبهذا المعنى نتحدث عن تراث الإسلام والصين والهند وروما[8]، وغيرها.

وأما المقصود بكلمة "العربيّ": فهو نسبة إلى اللُّغة العربيَّة المكتوب بها هذا التُّراث، وليس إلى البلاد العربيَّة ليصبح المقصود بمصطلح "المخطوط العربيّ" في هذا السياق: هو ذلك الكتاب المخطوط بخط عربيّ قبل عصر الطباعة، سواء أكان في شكل لفائف، أو شكل صحف ضُمت إلى بعضها البعض على هيئة دفاتر أو كراريس[9].

أما عن كلمة "مخطوط": فالمخطوط مأخوذ لغة من خط بالقلم وغيره، خط يخط خطًّا أي كتب أو صور اللفظ بحروف هِجائية، وذكر المعجم الوسيط (الصادر عن مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة) تعريفًا أكثر تحديدًا من سابقه؛ حيث ذكر أنَّ المخطوط هو المكتوب بالخط لا بالمطبعة وجمعُه مخطوطات، والمخطوطة: النسخة المكتوبة باليد[10].

## أهميَّة مخطوطات تراثنا:

تمثِّل هذه المخطوطات ذاكرتنا الثقافية، وإسهامنا الحقيقيّ الذي قدمناه إلى العالم في الفترة التي كان لنا فيها السبق الفكري والحضاريّ، المُشارِكيْن بفاعلية وتأثير كبير في التقدم الإنسانيّ بشكل عام. وهذا التُّراث وإن كان ينتمي لنا كونُنا مصدرَ بَثِّه وتقديمِه للعالم فهو أيضًا يمثِّل كنزًا وتراثًا إنسانيًّا عامًّا، نفخر أننا أصحابُه في يوم من الأيام، وأنه كان حَلْقة مُهمة من حَلْقات التطور العلميّ والفكري على المستوى العالمي، خاصَّة بالنسبة للغرب الذين تلقفوه واطلعوا عليه، ونقلوه إلى لغاتهم، بل ودرَّسوه في معاهدهم العلمية لعدة قرون. فأفادوا من العلوم المكتوبة بالعربيَّة كعلوم الطب، والفلاحة، والفلك، والفيزياء، والرياضيات، والهندسة، وغيرها من علوم.

ولنأخذ على سبيل المثال تراثنا الطبي الذي تبوأ مكانة رفيعة في الحضارة العربيَّة الإسلامية، فلقد جمع الأطباء الذين ظهروا إبان تلك الحضارة بين النظر والعمل أو ما نطلق عليه الآن "النظرية والتطبيق"، أو بين الفكر والممارسة، واتبعوا طرقًا عمليَّة إلى جانب مناهج التأمل الطويل، فكشفوا طبائع أمراض متعددة وبيَّنوا أعراضها وأوضحوا أسبابها، فكانوا بحق روادًا في هذا المجال. وما الطب الغربي إلا وليد الطب العربي، يدرك هذا جيدًا المتتبعون لانتقال المعارف العربيَّة إلى الغرب من خلال طرق شتى في بواكير النهضة الأوربية وفي إبانها وما بعدها[11].

وقد كانت تجارة الكتب العلمية التي هي عبارة عن مخطوطات رائجة بين البلاد الإسلاميَّة؛ وذلك لمكانة العلم، وقد ذكر الرواة أن رجلًا من التجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخةً من كتاب "القانون" للشيخ الرئيس ابن سينا، قد بولغ في تحسينها، فأتحف بها أبا العلاء بن زهر الإشبيلي (464–557 هـ / 1072– 1162م) تقرُّبًا إليه، ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك[12].

أما الإبداع الأدبيّ العربي فقد أفادوا منه أيضًا حتى إن بعضهم يقطع بتأثُّر أعلام أدبهم في ما تركوه من مؤلفات شهيرة بأدبائنا الكبار كتأثر دانتي أليجيري Dante Alighieri (1265–1321) في "كوميدياه الإلهية" مثلًا "برسالة الغفران" لإبي العلاء المَعريّ (973 1057)، وما تناقلته الدِّراسات من اعتراف أمير شعراء الألمان يوهان ولفجانج جوته Johann Wolfgang von *Goethe* (1749–1832) بتأثره بالشعر الجاهليّ خاصَّة المعلقات، بل وترجمَ بعضَها. أما "الديوان الشرقيّ"[13] الذي وصفه مؤلفه بـ"الديوان الشرقيّ لمؤلفٍ غربي" فقد تأثَّر فيه بحافظ الشيرازي، كما قرأ أيضًا المتنبي وأبي تمام، وغيرهما وتأثر بهم.

أما "ألف ليلة وليلة" فقد كانت نبعًا ثرًّا لأدباء الغرب، ينهلون من معين خيالها الذي لا ينضب، وقد اعترف أونوريه دي بلزاك Honoré de Balzac (1799–1850) أحد أقطاب الرواية الفرنسية بقراءته لها سبع عشرة مرة!

## وظيفة التُّراث:

التُّراث كما ألمحنا هو ذاكرة الأمة، وهو ما تبقى لها من مجدها الذي كان، فهو من ثَمّ شاهد عيان على ما قدّم الأجداد للأحفاد، ودليل الأواخر على ما كان للأوائل من دور رائد، وإسهام قائد في مجالات كثيرة، وهذا في حد ذاته له أهميَّة بالغة في شحذ الهمم وبعث الطاقات؛ لاستدراك ما انقضى وفات من وقت طويل ضاع في كسل وسبات. فحينما ندرك أننا كنا أصحاب مجد تليد وحضارة باذخة أمدت العالم الغربي بأسس تقدمه، فمن شأن ذلك أن يمدنا نحن بطاقة هائلة على تجاوز الفجوة الكبيرة بيننا وبين الغرب المتغطرس الذي يتيه ويفخر بما وصل إليه من تقدم هائل في كل المجالات، مُدّعِيًا أنه صاحب الأوّليّات والأبجديات في كل المعارف والعلوم، وينسى أو يتناسى ما كان يغط فيه من تخلف وما وصلنا نحن إليه في ذلك الحين من تقدم، بحيث يمكننا أن نقول: إن الحضارة التي ينعم فيها الآن هي وليد شرعي للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة.

وفضلًا عن أن استلهام روح التُّراث ضرورة نفسيَّة –إن صح هذا التعبير– فإنَّ ما يصلح منه لوقتنا الحاضر يمكن اعتباره أيضًا قاعدة بنائية وأساس مكين للانطلاق منه والبناء عليه. والواقع أننا لا نستطيع بحال أن نستغني عن قطاع كبير جدًّا من هذا التُّراث لا سيما تلك الثروة الهائلة في مجال الفقه والتشريع والأدب واللُّغة، وديوان الشعر العربي عامر بكنوز من التُّراث لا يعرف قيمتها إلا كل ماهر به وغواص فيه.

أما استكناه جوهر القيم العليا، والمناهج العلميَّة والخطوات العمليَّة، التي مكَّنت أجدادنا من التوصل إليه، فذلك بحق كنز ثمين ينبغي علينا أن نفض أختامه ونتعرف عليه جيدًا؛ لانتهاج مسالكه ودروبه واستثماره في استكمال مسيرة الآباء والأجداد. يقول أحد مؤرخي العلم: إن أعظم ما قدمه العرب والمسلمون للعالم ليس فقط مجموعة المعارف والنظريَّات على أهميتها ولكن أعظمها على الاطلاق هو المنهج العلميّ الذي مكننا من التوصُّل إلى كل ما توصَّلنا إليه من معارف وعلوم.

## مفهوم العولمة:

من المصطلحات التي شاعت مؤخرًا مصطلح "العولمة" Globalization، للدلالة على ظاهرة جديدة، وهي تعني في نظر البعض ظاهرة اقتصادية تهدف إلى الهيمنة الأمريكيَّة عن طريق الهيمنة التكنولوجيَّة على اقتصاديات العالم وإزالة الحواجز والمسافات بين الثقافات والشعوب والأوطان، وبذلك يقترب من مفهوم الثقافة الكونيَّة أو السوق الكونيَّة أو الأسرة الكونيَّة.

ولكي تحقق العولمة أهدافها فإنَّها تربط بين مستويات متعددة كالاقتصاد والسياسة والثقافة والأيديولوجيا ومن أدواتها الشركات متعدة الجنسية التي ليس لها ولاء لأية دولة قومية، وفي الوقت نفسه تعني حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنيَّة والإقليميَّة، وهي نظام عالمي جديد يقوم على الحاسبات الإلكترونيَّة والثورة المعلوماتيَّة دون

اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم العريقة السائدة، والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم، والدخول في طور من التطور الحضاري يصبح فيه مصير الإنسانيَّة موحدًا[14].

وبناء على ما تقدم، فإنَّ هذه العولمة هي أداة أمريكيَّة فاعلة لذوبان الهُوِيَّات الذاتية للأمم والشعوب ووسيلة قوية لتلاشي الثقافات الوطنيَّة للبلاد المختلفة، وماكينة هائلة لقولبة أو تنميط القيم والعادات الخاصَّة للأمم والشعوب ولا أريد أن أذهب أبعد من ذلك فأقول: والعقائد أيضًا على هوى القوة الهائلة المسيطرة؛ ولذا فإن أردنا الحقيقة والابتعاد عن التجمُّل الكاذب فإننا نستطيع بأمان تام أن نستبدل كلمة الأمركة Americanization بكلمة العولمة Globalization حتى نختصر الطريق ونصيب كبد الحقيقة.

واستقراءً مما سبق فإنَّ مفهوم الهُوِيَّة مهدد بالنظام العالمي الجديد أو العولمة، وإن كانت الشعوب العربيَّة والإسلاميَّة لأسباب نعرفها لا تستطيع الوقوف في وجه هذا التيار الجارف فلا مفر من أن تقوم. فالهُوِيَّة هي أساس الأمم والشعوب بل والوطن والمواطن، والتفريط فيها تفريط في الانتماء والوجود، ومِن يمن الطالع أن الهُوِيَّة العربيَّة محصَّنة بالدين واللُّغة ولكن لا ينبغي أن نركن لهذا وإنَّما لا بد من اليقظة في عالم مليء بالتحديات وتضارب المصالح.

وهنا تتجلى أهميَّة التُّراث كترياق فاعل ضد العولمة في استمرار واستدامة الحفاظ على الهُوِيَّة، والشخصيَّة القومية لكل أمة من الأمم، أو شعب

من الشعوب يعتز بقوميته، ويفخر بهُوِيَّته، ويحتفظ بمفرادته الخاصَّة التي تميزه بين الأمم المختلفة دون أدنى وقوع هوة في الشوفينية المقيتة.

ولا يفوتني في هذا السياق أن أعرّج على مسألة مهمة، فبما أنه لكل عملة جانبان فإنه من الكياسة والحصافة أن نستثمر الجانب الإيجابي للعولمة، وأعني به ما تتيحه وتوفره من إمكانات هائلة خاصَّة بالنسبة للتيسيرات الهائلة والسريعة في تكنولوجيا التواصل السمعي والبصري، وتوظيف مثل هذه الإمكانات بما يخدم كل أنواع التُّراث من مخطوطات لتصويرها وتوثيقها ونشرها على نطاق واسع، وتراث مادي يتمثل في آثارنا الكثيرة المتنوعة عبر العصور المختلفة ومحاولة استردادها، وتراث سمعي غير مادي وتسجيله وتوثيقه للحفاظ عليه من التشويه والتحريف والاندثار.

## واجبنا نحو تراثنا ومخطوطاتنا:

إذا كان للتُّراث بكل أنواعه وأشكاله المختلفة هذه الأهميَّة الكبرى فلا مندوحة لنا من أن نحافظ عليه، وأن نعمل بشتى الطرق لوضعه في المكانة اللائقة التي يستحقها وذلك من خلال ما يأتي من إجراءات وتدابير، ومن أهمها:

**أولًا:** لا بد من العناية بهذا التُّراث وتوثيقه واستثمار معطيات العلم والتكنولوجيا الحديثة والجانب الإيجابي من العولمة في هذه العناية وهذا التوثيق.

**ثانيًا:** ينبغي تحقيق المخطوطات التي لم يتم تحقيقها؛ وذلك بمقابلتها بنسخ مختلفة سواء في البلد الموجودة بها هذه المخطوطة أو في بلدان مختلفة؛

ولهذا ينبغي أن ترصد لهذا العمل ميزانية تكفل القيام بهذا الدور على خير وجه ممكن.

**ثالثًا:** العمل على فهرسة هذا التُّراث وتصنيفه، سواء الموجود منه في البلاد العربيَّة أو الإسلاميَّة أو حتى في البلاد الغربيَّة، ونشر هذه الفهرسة في كتب بحيث تصبح متاحة للباحثين والدارسين لتوفير الجهد والوقت في عمليات البحث والتنقيب لعملية التحقيق ذاتها.

**رابعًا:** لا بد من بذل المحاولات الجادة لاستعادة تراثنا المفقود ومخطوطاتنا العربيَّة المُهَجَّرَة، حتى لو اضطررنا للجوء إلى المحاكم الدوليَّة في هذا الشأن، وحتى لو كلفنا هذا شراءها.

**خامسًا:** تشجيع إنشاء مراكز للحفاظ على التُّراث وتحقيق المخطوطات بالجامعات المصرية والعربيَّة المختلفة، وربطها ببعضها البعض، مع تنسيق التعاون فيما بينها وبين معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربيَّة؛ حتى يمكن استثمار الجهد والوقت والمال على أفضل وجه ممكن، خاصَّة بالنسبة لتحقيق ونشر المخطوطات، وتجنب التكرار في العمل الواحد في أكثر من جهة بحثية، ويفيد في هذا الصدد إنشاء قاعدة بيانات خاصَّة بهذه المخطوطات لما أنجز منها وتم تحقيقه، وما هو قيد التحقيق، وما هو مزمع تحقيقه مستقبلًا.

**سادسًا:** رصد المكافآت السخية والجوائز القيمة لأولئك النفر من الجنود المجهولين الذين يقومون بجهد مشكور في تحقيق المخطوطات النادرة، وإخراجِها بالصورة اللائقة شكلًا وموضوعًا في هدوء وصمت بعيدًا عن الأضواء.

**سابعًا:** العمل بكل الطرق على زيادة الوعي المجتمعي بأهميَّة التُّراث وضرورة صيانته والمحافظة عليه حفاظًا على الهُوِيَّة والشخصيَّة القوميَّة، وليكن هذا ضمن أولويات واهتمامات قطاعات "خدمة المجتمع وشئون البيئة" في جامعاتنا وكلياتها المختلفة كل في مجاله.

**ثامنًا:** ضرورة الحفاظ على التُّراث الثقافي غير المادي ونعني به التُّراث الشفاهي الذي تكوَّن عبر تراكمات متعاقبة خلال المراحل التَّاريخية المختلفة التي مرت بأمتنا وشعوبها؛ لكونه يمثِّل الملامح والقسمات التي تميزها عن غيرها.

## التجديد والتُّراث في عصر العولمة:

من القضايا القديمة المتجددة قضية تجديد التُّراث، وهي قضية يمكن أن يساء فهمُها؛ ومن ثم استغلالها في محاربة التُّراث ذاته أو التهُوِيَّن من شأنه؛ بل ومحاولة تقويضه بوسائل شتى بحجة هذا التجديد المزعوم!

ورحم الله الشيخ أمين الخولي فهو واحد ممَن أدركوا خطورة وأهميَّة التُّراث، وفي الوقت نفسه أدرك أهميَّة التجديد ودعا إليه ولكن بشروط صارمة؛ ولذا أطلق مقولته الشهيرة: "من يريد التجديد فعليه أن يقتل التُّراث بحثًا"، والمعنى: أن التجديد لا بد أن ينطلق من فَهم التُّراث واستيعابه جيدًا، وليس بالنفور منه والدعوة إلى مقاطعته أو إلغائه. فالتُّراث كنز ثمين لمن أراد بحق وصدق أن يُجَدِّد ولا يَتَبَدَّد. وعلى هذا فلا يصح لبعض من يدسون أنوفهم في هذه القضية وهم في الوقت ذاته لم يعرفوا قيمة وقدر هذا التُّراث من خلال قراءته ودراسته ووعيه أن يتصدوا لقضية التجديد هذه؛ إذ كيف يحكمون على شيء

يجهلونه؟ والقاعدة الأصولية تقول: "الحكم على الشيء فرع من تصوره" بمعنى: أنه لكي يتم إصدار الأحكام على الأشياء (أقوال أو أفعال أو تصرفات معينة) لا بد من تصور تلك الأشياء المعروضة لإصدار الحكم لها أو عليها، بمعنى فَهمها واستيعابها بدرجة تمكن الناظر فيها من أخذ فكرة متكاملة عنها حتى يأتي حكمه صائبًا أو قريبًا من الصواب.

وعلى النقيض مما يتردد على الدَّوام في بعض الكتابات ووسائل الإعلام من أن المؤسسات الدينيَّة التقليديَّة غارقة في التَّاريخ، ولا يمكنها أن تتواصل مع مخرجات عصرها أقول: على الرغم من كل هذه المغالطات والادعاءات فإن محاولات التجديد إنَّما انطلقت من تلك المؤسسات التي تُعنى بتدريس العلوم والمعارف الإسلاميَّة؛ ومن ثَم انخرطت في نقاشها وسجالاتها بل وفي معاركها إن اقتضى الأمر. ففي مصر على سبيل المثال خرج من الأزهر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، والأستاذ الإمام محمد عبده، والأستاذ مصطفى عبد الرازق وشقيقه الشيخ علي عبد الرازق، والدكتور محمد عبد الله دراز، والأستاذ خالد محمد خالد، والدكتور محمد مصطفى حلمي، وغيرهم.

وقد أثار معظم هؤلاء، كل في عصره، مسائل غير مألوفة وغير مكررة وقد تصطدم بما هو مألوف مما أثار حراكًا فكريًّا، على الرغم من اختلافهم طبقًا لمواهبهم وسياقات تكوينهم اعتمادًا على ما فهموه من التُّراث في ضوء العصر الذي عاشوا فيه وتفهموا فقه واقعه.

ونحن بدورنا لم نكن نلج هذا الباب لولا أنه مرتبط بصورة أو بأخرى بالهجوم الغاشم للعولمة التي تريد تنميط الشعوب والمجتمعات، وتنزع هُوِيَّتها، وتصبغها بصبغتها سلوكًا وثقافة؛ بل وانتماءً أيضًا. وقد يقع في فخها بعضٌ ممن لم يتعمق من الثقافة ويتحصن بالوطنية والانتماء عن طريق التمسك بتراثه العريق، فيجري مجراها ويسير على هواها.

ولهذا فإنَّ الهُوِيَّة العربيَّة الإسلاميَّة التي تتأكد وتتدعم عن طريق إرثنا وتراثنا الحضاري المتلائم والمواكب لسياق العصر الذي نعيش فيه هي بحق السبيل والملاذ الواقي من الذوبان والانسحاق في أتون ما نواجهه من تراجع وتخلف وتبعية، وهي من جهة أخرى الترياق الذي يحول دون انجرافنا في موجة العولمة العاتية التي تريد أن تسلبنا شخصيتنا وفرادتنا وهُوِيَّتنا؛ ومن ثم وجودنا ذاته.

ومن أصوب المواقف تجاه هذه الهجمة الشرسة التي تتعرض لها الأمتان: العربيَّة بوجه خاص والإسلاميَّة بوجه عام، ألا نغلق النوافذ تمامًا لحماية هذه الهُوِيَّة الثقافية والحضارية، بل ينبغي أن نعمل على تحصين الذات واستثمار الذخائر الإيمانيَّة المستكنة في الصدور، وأن أول ما يُوصَى به هو الحرص على ألا يدفعنا الواقع الأليم لأمتنا العربيَّة الإسلاميَّة إلى حافة التشاؤم أو اليأس؛ إذ هو واقع مؤقت قياسًا على ما مرَّ بها من نكبات وأزمات خلال مسيرتها الطويلة الممتدة نحو أربعة عشر قرنًا من الحروب الصليبية، والغزو التتاري، والاستعمار الغربي الحديث، بل ينبغي أن يدفعنا هذا إلى تغلب بواعث

الأمل في مستقبل أفضل وذلك بالحث على استنفار عوامل المقاومة والتصدي، وهي ذاتها التي ستعمل على المحافظة على هُوِيَّة الأمة أيضًا. فقد دأبت هذه الأمة عند مقابلة الأخطار طيلة تاريخها على استخراج مكنون الذخائر الإيمانية من القلوب وتعبئتها من النفوس بواسطة علمائها لتتدبر أسباب الهزائم في ضوء السنن الإلهيَّة بالكتاب الكريم، ولنسترشد بتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ إن أحد أهم أسباب الهزائم هي مخالفة تعاليمه، والتفريط في اتباع سنته، وكان هذا هو الدرس الأول في ما حدث في موقعة أُحد، والدرس الأخير في هزيمة يونيو 1967م، ثم تحقق النصر حينما أخذنا بالأسباب وهتفنا في الوقت ذاته بشعار "الله أكبر"[15].

إن مضمون التُّراث العربي الإسلاميّ والحفاظ عليه وتمثّله يظلُّ عاملًا مهمًّا من عوامل وجودنا؛ ذلك أنه يشكِّل ثقلًا نوعيًّا يمنع الجماعة من التحوّل إلى ورقة في مهبّ رياح الثقافات الواحدة، ويعصمها من الجريان وراء كل بدعة، ويحميها من محاولات طمس المعالم التي تُميز الشخصيَّة العربيَّة المستقلة، وهي محاولات لسلب الجماهير العربيَّة أساسها الحضاري القديم الذي يمكن أن تشيّد عليه مستقبلها دون أن تتقوقع على ذاتها؛ لذلك كان السعي الجاد لإيجاد صيغة لهُوِيَّة ثقافيَّة تلتقِي فيها أصولنا الموروثة مع ثقافة العصر الذي نعيش فيه، صيغة قوامها أصول رئيسيَّة من التُّراث العربي وأصول أخرى مناسبة من مقومات ومكونات عصرنا الحاضر[16]، على نحو ما أوضحه وفصَّله المفكر الفيلسوف زكي نجيب محمود في كتابه المهم "تجديد الفكر العربيّ"[17].

**الهوامش والتعليقات:**

(1) فيصل يوسف أحمد العلي (2014). علم المخطوط العربيّ: بحوث ودراسات. سلسلة "الوعي الإسلامي"، الإصدار التاسع والسبعين. الكويت. ص 5.

(2) د. شاكر مصطفى (1978). مقدمة كتاب: تراث الإسلام. الجزء الأول. سلسلة كتاب عالم المعرفة، العدد رقم 1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ص 12.

(3) د. حسين نصار (2003). التُّراث.. لماذا؟ مقال في مجلة: "تراثيات" التي يصدرها مركز تحقيق التُّراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، العدد الأول الصادر في يناير 2003. ص 14.

(4) د. يونس الشديفات (2018). الأوراق العلمية المحكمة الخاصَّة بالمؤتمر الدولى بعنوان: "تراثنا بين الاستدامة والأزمات". الأردن. ص.د.

(5) د. محمد جمال طحان (1994). "قراءة التُّراث" بين النص المفتوح والنص المغلق. مجلة "الفكر العربيّ" العدد الخامس والسبعون، ص129.

(6) المصدر السابق الموضع نفسه.

(7) المصدر السابق، ص 129.

(8) المصدر السابق رقم 2، ص 8.

(9) د. السيد على النشار (1997). في المخطوطات العربيَّة. دار الثقافة العلمية بالإسكندرية. ص 6.

(10) المصدر السابق، ص 5.

(11) د. عبد الكريم اليافي (1981). بيت بني زهر الإيادي الإشبيلي الطبي والأدبيّ. مقال بمجلة "الكاتب العربيّ"، دورية فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، السنة 1، العدد 1، ص 16.

(12) المصدر السابق، ص 17.

(13) عباس محمود العقاد (1932). تذكار جيتي. الطبعة الأولى. مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بالقاهرة. ص 118.

(14) علي عفيفي غازي (2021). بين عالمية الإسلام والعولمة. الموقع الإلكتروني لمجلة حراء.

(15) د. محمد مصطفى حلمي (2001). حضارة العصر: الوجه الآخر. دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع. الإسكندرية. ص80.

(16) محمد قرانيا (1996). التُّراث والأصالة المعاصرة: ملامح ونظرات. مجلة المعرفة السوريَّة، عدد 390، مارس- أبريل، ص39.

(17) د. زكي نجيب محمود (1993). تجديد الفكر العربيّ. الطبعة التاسعة. دار الشروق. القاهرة. ص ص 1-388.